القدس الشريف
بين شعراء الشعوب الإسلامية

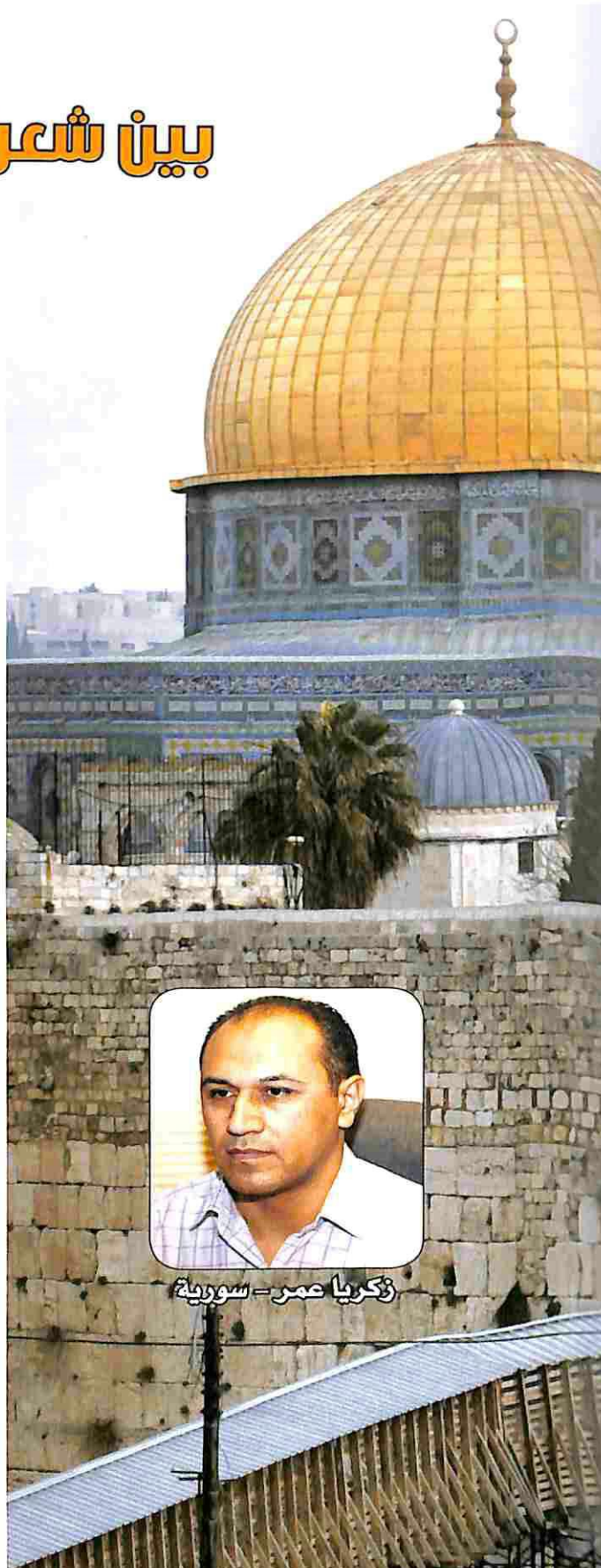

زكريا عمر - سورية

لما باتت القدس من أكثر أحداث الدنيا مأساة، كان لابد أن تفيض قرائح المفكرين والأدباء والشعراء بإبراز مكانة القدس وأهميتها منذ مرور الفترات التاريخية، ليس عند العرب فحسب، بل عند الشعوب الإسلامية الأخرى وعند العرب قبل الإسلام.

إن كتاب (القدس الشريف بين شعراء الشعوب الإسلامية) لمؤلفه د. حسين مجيب المصري، الذي استحق لقب عميد الأدب الإسلامي المقارن - يعد توثيقًا تاريخيًا لمدينة القدس على أوسع نطاق، إذ تتبع فيه مؤلفه كل ما استطاع إليه سبيلاً من شعر عربي وفارسي وتركي وأردي قاله شعراء الشعوب الإسلامية في مدينة القدس بخاصة وفلسطين بعامة.

هَدَف المؤلف من كتابه إلى تعريف القارئ بتراثه الإسلامي بما تضمنه من معارف ومعلومات ليس من مصادر عربية فقط، بل من لغات الشعوب الإسلامية وآدابهم وأشعارهم التي تبرز في مجملها وحدة الأمة ووقوفها صفًا واحدًا في مواجهة الأحداث والدفاع عن مقدساتهم، وأن ما جرى ويجري في القدس هو همّ مشترك لدى المسلمين كافة، يجمعهم دين واحد رغم تباينهم في اللسان، وعلى ذلك كانت القدس أكبر همهم، ومهوى أفئدتهم.

اشتمل الكتاب على مدخل وأربعة فصول على النحو الآتي:

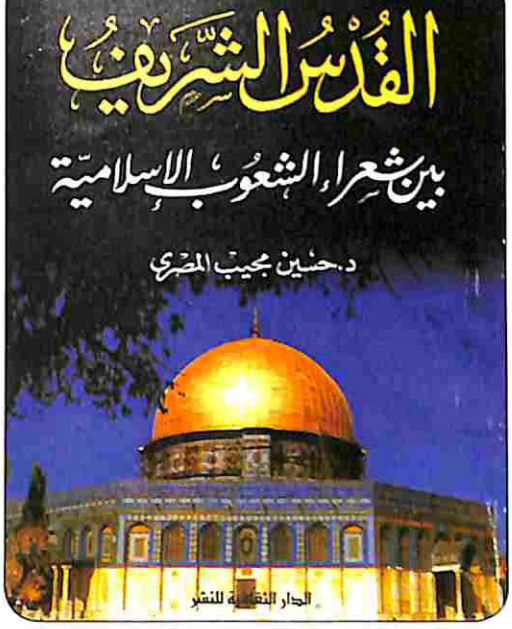

- المدخل: القدس في تاريخها.
- الفصل الأول: القدس في الشعر العربي.
- الفصل الثاني: القدس في الشعر الفارسي.
- الفصل الثالث: القدس في الشعر التركي.
- الفصل الرابع: القدس في الشعر الأردي.

بعد السرد التاريخي المفصل لمدينة القدس ووصف مكانتها ومنزلتها عند المسلمين وماتوالت عليها من أحداث ينتقل المؤلف إلى فصول الكتاب الأدبية، ونعرض لذلك بشيء من الإيجاز.

القدس في الشعر العربي

ويستغرق هذا الفصل نحو ١٢٠ صفحة، ويعرض فيه المؤلف أشعارًا لنحو ستين شاعرًا بدءًا من شعراء الجاهلية وانتهاء بشعراء العصر الحاضر. فعند الحديث عن الشعر الجاهلي يورد المؤلف أبياتًا تشتمل على تسميات عديدة للقدس عرفت بها مثل أورشليم، وإيلياء، وبيت المقدس. فقد وردت التسمية «أورشليم» في قول الأعشى: (ص٥٣).

وقد طفت للمال آفاقه
عمان، فحمص فأورى شلم

وكذلك التسمية «بيت المقدس» في قول امرئ القيس: (ص٥٣).

فأدركته يأخذن بالساق والنسا
كما شبرق الولدان ثوب المقدس

وبعد ذلك ينتقل المؤلف إلى الشعر الإسلامي فيسرد أبياتًا تصف منزلة القدس وقدسيتها عند الشعراء المسلمين، كما في قول الفرزدق: (ص٥٣)

ومنا الذي لاينطق الناس عنده
ولكن هو المستأذن المتنصف
تراهم قعودًا حوله وعيونهم
مكسرة أبصارها ما تصرف
وبيتان: بيت الله نحن ولاته
وبيت بأعلى إيلياء مشرف

ومن ذلك أيضًا أبيات لأبي العلاء المعري يقول فيها: (ص٥٤).

يا شاكي النوب انهض طالبًا حلبا
نهوض مضنى لحسم الداء ملتمس
واخلع حذاك إذا حاذيتها ورعا
كفعل موسى كليم الله في القدس

ثم يخص المؤلف أسرة صلاح الدين الأيوبي بحديث مطول عن فضلهم وفتحهم القدس، فيورد بشأنها شواهد شعرية لأكثر من شاعر يزفون التهنئة لصلاح الدين حين حرر القدس، فمن ذلك أبيات للشاعر العماد الكاتب يقول فيها: (ص٥٨)

وكم لبني صلاح الدين فينا
على الإسلام من حق تأكد
وأن لهم على الأملاك طرًا
بفتح القدس فضلا ليس يجحد

ويعرض للشاعر رشيد بن بدر النابلسي قصيدة يبين فيها كيف أن فتح القدس كان نصرًا للمسلمين جميعًا على الصليبيين و العالم الأوروبي كاملا، يقول: (ص٦٠).

هذا الذي كانت الآمال تنتظر
فليوف لله أقوام بما نذروا
بمثل ذا الفتح لا والله ما حكيت
في سالف الدهر أخبار ولا سير
الآن قرت جنوب في مضاجعها
ونام من لم يزل حلفا له السهر

هذا الذي سلب الإفرنج دولتهم

وملكهم، يا ملوك الأرض فاعتبروا

ثم ينتقل المؤلف للحديث عن القدس في العصر الحاضر فيستعرض كثيرًا من نماذج الشعر لشعراء من فلسطين ومصر وسوريا والأردن والعراق وتونس وليبيا، ثم يفصل الحديث عن تلك النماذج بالشرح والوصف فيظهر في بعضها اهتمام الشعراء بالقدس الشريف وذكرهم لها بكل جميل، وأن حبها لامس شغاف قلوبهم، وخير ما يمثل ذلك أبيات لأحمد شوقي يتجلى فيها قدسية القدس وعظمتها، إذ يقول: (ص٦٢)

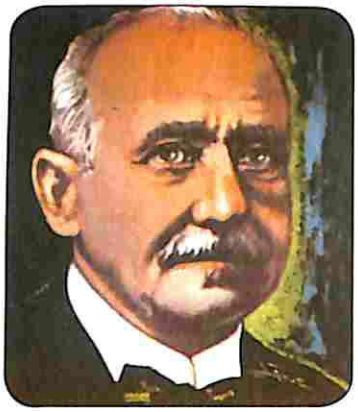

أحمد شوقي

بيت على أرض الهدى وسمائه

الحق حائطه وأس بنائه

الفتح من أعلامه والطهر من

أوصافه والقدس من أسمائه

تحنو مناكبه على شعب الهدى

وتطل سدته على سينائه

ومن الشعراء من جعل القدس في منزلتها أختًا لمكة المكرمة عند المسلمين، كما في أبيات الشاعر السعودي حسين عرب وزير الحج والأوقاف الأسبق، يقول فيها: (ص٦٤).

القدس يا مسرى النبي

ومنارة الحق الأبي

يا أخت مكة والمدي

نة في التراث الطيب

هتف الجهاد بنا إلي

ك فجاهدي وترقبي

اليوم يوم الثأر من

أعدائنا فتأهبي

المسلمون توافدوا

من مشرق أو مغرب

المسجد الأقصى ينا

ديهم لعز المطلب

رايات أحمد أقبلت

تحمي حماك فرحبي

ثم يسرد المؤلف أبياتًا تعبر عن لهفة الشعراء وشوقهم إلى مدينة القدس وأيامهم الغر فيها، وكيف أنهم يحنون إلى روابيها، ويرغبون أن يفدوها بدمائهم المباحة، ولا سيما الشعراء الفلسطينيون، من ذلك قول الشاعر الفلسطيني محمود مفلح: (ص٩٢)

أحن إلى روابيك الفساح

وألثم فيك شقشقة الصباح

ويهتز الفؤاد على قواف

لها من فيك رائحة الأقاحي

ولم أحنث بعهدك طول عمري

ولم أحرص على دمي المباح

ونقرأ نموذجًا آخر يورده المؤلف عن انتفاضة أبناء القدس وبناتها الصغار وليس في يدهم سلاح إلا الحجارة يرمون بها الأعداء طالبين الشهادة التي تفضي بهم إلى جنات النعيم، وخير ما يصف ذلك قصيدة بعنوان «الله أكبر» للشاعر كمال رشيد، قال فيها: (ص٩٥)

ماذا أقول لكم!.. في القدس أخبار

كأنها في عيون القوم أقدار

في القدس نار على الأعداء نازلة

وفي أيادي بنات الرام أحجار

حشو البنادق لم يرهب بني وطني

شماء قعساء فيها النور والنار

شبوا على الطوق ردوا الظلم وانتفضوا

فهم على الظلم والعدوان ثوار

وفي تضاعيف هذا الفصل يجد القارئ قصيدة عصماء لفاروق جويدة بعنوان « رسالة إلى شارون» يقول عنها المؤلف إنها فريدة من نوعها في الهجاء السياسي، فقد شاء أن يعرض على الأشهاد ما قدمت يدا شارون المجرم، يقول: (ص١٣٤)

فاروق جويدة

د . حسين مجيب المصري

ارحل عن القدس واترك ساحة الحرم
هل يلتقي الطهر ياخنزير بالرمم
كيف اجترأت على أرض مطهرة
أسرى بها خير خلق الله والأمم
هذا التراب الذي لوثت جبهته
مازال يصرخ بين الناس في ألم
لوثت بالعار أعتابًا مباركة
وجئت كالكلب في حشد من الغنم
تاريخك الآن بالأوحال نكتبه
لكل أطفالنا..في القبر والرحم
يا أقذر الناس تلهو في مساجدنا
وتقذف القدس بالنيران والحمم
كيف اجترأت على أقداسنا سفهًا
وجئت كالموت..بالحراس والخدم

القدس في الشعر الفارسي

يتحدث المؤلف في مقدمة هذا الفصل عن مساعيه وجهوده التي بذلها للحصول على كتب أو صحف تضمنت شعرًا فارسيًا حديثًا لشعراء من إيران، إلا أن مساعيه باءت بالفشل، فعقد العزم هو نفسه على نظم شعر بالفارسية في القدس، وله ديوان نشر في مدينة لاهور بباكستان ضمنه قدرًا كبيرًا من الأشعار نظمها بالفارسية، ثم ترجمها شعرًا إلى اللغة العربية. (ص١٧٣)

ومما أورده في هذا الفصل قصيدتين نظمهما بالفارسية ثم ترجمهما إلى العربية شعرًا، الأولى بعنوان: «ملحمة القدس» والأخرى بعنوان « عودة القدس».

وهذه بعض الأبيات من القصيدة الأولى يقول فيها: (ص١٧٤)

صل وجل بالسيف يا هذا الأسد
إن ذئب السوء طاف بالعرين
امح عنك الخزي أو عار الأبد
واستعن بالله فالله المعين
كم رووا للذئب وصفا في المثل
واشتكى الراعي على مر السنين
طبعهم هذا وهذا شأنهم
وهو مشهور لدينا أجمعين

ويقول في « عودة القدس»: (ص١٧٨)

نبيون يا قدس تحت الثرى
وتلك الحقيقة كل درى
بأرضك ها إنهم قد مشوا
فأرضك مسكا بدا أذفرا
وما كنت أرضًا ولكن سما
وها قد رفعت لأعلى الذرا

ثم يعرض المؤلف قصيدة أخرى من نظمه بعنوان «ابن صهيون»، يقول فيها: (ص١٨١).

يـا ابـن صـهـيـون تـيـقـظ
يـا ابـن صـهـيـون تبصر
أنـت في الأوهـام تغفو
قـم فـإن الـفـجـر أسـفـر
أنـت يـا مـن أنـت فـأر
مـا زئـيـر لـلـغـضـنـفـر
أنـت فـأر لـيـس إلا
فـلـمـاذا تـتـنـمـر؟!

◁◁ القدس في الشعر التركي

يبدأ المؤلف هذا الفصل بالحديث عن الحضارة التركية، ويذكر تأثر الأدب التركي بالأدب الفارسي.

ثم يفصل الحديث عن الشعراء الأتراك وتدينهم، ومنزلة القدس في شعرهم الذي قام المؤلف - كما في الشعر الفارسي- بترجمته إلى العربية شعرًا، ومن هؤلاء الشاعر «محمد عاكف» المعروف بشاعر الإسلام، والشاعر «يونس أمْرَهْ» الذي عاش في القرن الثالث عشر للميلاد، ثم يذكر الشاعر «يحيى بك» الذي عاش في القرن السادس عشر للميلاد، ومن شعره في القدس: (ص١٨٦)

محمد عاكف

إن بيت الله والأقصى حمانا
موئل الجيش وظل الله كان

ومن شعراء القرن السادس عشر أيضًا شاعر يسمى «نفعي» وكان صاحب قدرة إبداعية،

والشاعر « غاني زاده نديري، وله قصيدة في معراج الرسول صلى الله عليه وسلم، والشاعر أسرار دادا الذي يعد من شعراء المديح النبوي في القرن الثامن عشر يقول من قصيدة له: (ص١٨٩)

أنـت كـحـل لـعـيـون أبـصـرت
وظلال القدس ها قد أشرقت
من رياض القدس قد هب النسيم
منك يحيي ذلك العظم الرميم
وطيور القدس قد سخرتها
هـذه الأفـلاك قـد ناجيتها

فهو يشير في هذه الأبيات إلى الإسراء والمعراج، وإلى إحياء عيسى عليه السلام للموتى، جانحا إلى التمثيل والتخييل، والرمز.

ثم ينتقل المؤلف للحديث عن شعراء الأتراك في العصر الحديث، فيذكر الشاعر «سيزائي قراقوج»، ومن شعره: (ص١٩٣)

إنـهـا الـقـدس وأرض الأنـبـيـاء
وإلـيـهـا كـم نـبـي كـان جـاء
جـاء عيسى وهو يمشي في ضياء
جـاء مـوسـى في سـمـو وسـنـاء
ولإبـراهـيـم مـن نـار وقـاء
وسـلـيـمـان عـظـيـم الـكـبـريـاء

فهو يربط بين القدس والأنبياء للدلالة على أنها مدينة أنبياء الله سبحانه وليس لليهود خاصة كما يزعمون. ويشير إلى انتفاضة الحجارة ضد اليهود المحتلين وأن القدس منطلقها فيقول: (ص١٩٣)

ومن صخرة القدس قام البطل
على ساحة الحرب ها قد أطل
وكـان الـسـلاح سـلاح الحجر
لـهـذا الـشـهـيـد وهـا فانتصر

ومن الشعراء المحدثين أيضًا « رمضان ألتين طاسي» الذي يقول في القدس: (ص١٩٤).

هي القدس بقلبي في السويداء
دمـاء إنـهـا تجـري لإحـيـائـي

وثمة الشاعر التركي « عمر لطفي» الذي يضفي على القدس الحزن والعشق قائلا: (ص١٩٤)

جوانح أحرقت عشقا
دموعًا أرسلت دفقا
رياح إنها سكنت
على شفة فسحقا لها سحقا
وعصر الظلم يحويها
تزلزل مسجد فرقا

◁◁ القدس في الشعر الأردي

يستعرض المؤلف في هذا الفصل مجملاً الحديث عن موقف باكستان من قضية فلسطين ودعمها الكامل للشعب الفلسطيني في نيله لحقوقه المشروعة، ثم يبين الشبه بين ما جرى للمسلمين في كشمير وما جرى لهم في فلسطين.

ثم يعرج المؤلف على الشاعر الباكستاني « فيض أحمد فيض» فيعرض شعره في ديوان « قلبي مسافر» الذي ضمنه قصيدتين عن فلسطين ، ثم يفصل القول في نكبة فلسطين و المأساة التي يعانيها شعبه.

وكذلك يتحدث عن الشاعرة نبيلة إسحاق إبراهيم التي لها ديوان بعنوان « قدس شريف» فيسرد منه قصائد عديدة كقصيدة«بيت المقدس»وقصيدة «القدس الشريف» وقصيدة«سلام على شهداء القدس الشريف»وقصيدة«أم ترثي ابنها الشهيد في القدس»وقصيدة«كشمير والقدس»، ولها ملحمة طويلة تمتد إلى أكثر من مئة بيت تستنفد كل طاقتها وشاعريتها في قضية القدس وعنوانها «ملحمة القدس وكشمير»، وقد نظمت هذه الملحمة مقطعا عن كشمير ومقطعا عن القدس وتتألف من ثلاثة عشر بندا، تقول في مطلعها: (ص٢٠٨).

نجوم خبت، زال لون القمر
فكشمير لم يبد منها الأثر
محوا حسنها حملوا نعشها
وقد حرقوا وذروا قشها
أكشمير شابهت أنت الجنان

❖ ❖ ❖

هي القدس، قال اليهود لنا
وهم أطفؤوا ما لها من سنا
دماء الزهور تذيب القلوب
وتبكي السماء لهول الخطوب
لنا لا لهم من قديم الزمان

وهكذا تمضي في عرض مأساة كل من كشمير والقدس، وما تتعرضان له من أنواع العدوان.

ولها منظومة أخرى تحت عنوان «القدس الأسير» تقول فيها: (ص٢١٧)

على القدس من أنزل الصاعقة
ودنيا بصمت لها زاعقة
هو الصمت كان بكل مكان
مشاهد يحرق منها الجنان
نسيم الربيع كما العاصفة
وكم من قلوب لها واجفة
يموج عبير بها في الفضاء
وفي يومنا أشبهت كربلاء

ويختم المؤلف هذا الفصل والكتاب بالحديث عن الشاعر الكبير «محمد إقبال» الذي ظل يدافع عن حق العرب في فلسطين ويندد بالمخطط الاستعماري الغربي والصهيوني الذي يهدف إلى إجلاء العرب عن فلسطين لتقوم دولة لليهود فيها، ويفضح مكائد الإنجليز المستعمرين، ويبين أن الشاعر في شعره يعتمد كثيرًا على الحقائق التاريخية والآراء العقلية، فقد عارض إقبال بشدة منطق اليهود بزعمهم أن لهم حقاً في إقامة دولتهم في فلسطين ودعوتهم يهود العالم للإقامة في هذا البلد، وقاس على ذلك حق العرب في المطالبة بالعودة إلى الأندلس بزعم أنهم أقاموا فيها ثمانية قرون، يقول الشاعر: (ص٢٢٠)

فلسطين إن تك حق اليهود
فأندلس إنها ما نريد
والإنجليزي خفي المراد
بهذي الدنيا رسوخ اعتقاد

وإقبال لم يذكر احتلال القدس في قصائده، ذلك أنه حين قدمها مرتين في سالف الأيام لم تكن وقعت في أيدي اليهود، ولكنه كان يستشعر المؤامرة التي تحاك من قبل الإنجليز.

إقبال

وفي الختام: يعد هذا الكتاب رائدا في موضوعه لما لمؤلفه من اطلاع على الآداب الفارسية والأوردية والتركية فضلا عن العربية، مما أتاح له القدرة على تأليف أكثر من كتاب في هذا النوع من الأدب المقارن، إن لم يكن بالنقد فبالعرض، وهو بحد ذاته عمل ممتع للقارئ العربي مثل كتاب: رمضان بين شعراء الشعوب الإسلامية، وكتاب: غزوات الرسول بين شعراء الشعوب الإسلامية.

ولعل أهم ملحظ سلبي في الكتاب الذي بين أيدينا هو ما عرضه المؤلف من الشعر الفارسي، إذ اشتكى بأن أصدقاءه لم يزودوه بقصائد لشعراء نظموا عن القدس، فاضطر أن ينظم هو قصائد بالفارسية ثم ترجمها إلى العربية، مما أبقى القارئ في دائرة الشوق إلى الاطلاع على ما قاله الشعراء الذين يعيشون في إيران والبلاد التي تنتشر فيها اللغة الفارسية. ومن حقنا أن نتساءل: هل تعد قصائد المؤلف نفسه باللغة الفارسية ثم ترجمته لها إلى العربية - وهو عربي مصري- من الأدب الفارسي؟!.

يقع الكتاب في ٢٢٤ صفحة، وصدرت الطبعة الأولى منه عام ٢٠٠٢م، عن الدار الثقافية للنشر بالقاهرة ■